Tarih Kültür ve Sanat Araştırmaları Dergisi (ISSN: 2147-0626)

Journal of History Culture and Art Research
Revue des Recherches en Histoire Culture et Art
مجلة البحوث التاريخية والثقافية والفنية

Vol. 3, No. 4, December 2014
Copyright © Karabuk University
http://kutaksam.karabuk.edu.tr/index.php

DOI: 10.7596/taksad.v3i4.389

مسيرةُ الحضارةِ الإسلاميةِ التركيةِ في الأناضولِ بين الماضي والحاضر

The Course of Turco-Islamic Civilization in Anatolia from Past to Present

Hür Mahmut Yücer[1]

الأستاذ الدكتور حر محمود يوجر

Abstract

This study endeavours to ascertain the bibliographical resources which the Anatolian Turks, an important component of Islamic history and civilization, have been nourished. Meanwhile it holds the style of civilization which they have constructed according to the course of these sources. Turks, after embracing Islam had used Persian and then Arabic as language of science. However most of the people who knew Turkish only, had formed their religious feelings through easy and brief texts which are easy to read and understand. In the Seljukids' era the books such as *Hamzanamah*, *Hz. Ali'nin Cenkleri* (The Battles of the Caliph Ali) and *Battalnamah* had been publicly read while in the Ottomans' era the people had read the books such as *Mızraklı İlmihal* (a book explaning principles of Islam), *Ahmadiyah*, *Muhammadiyah*. Great masses of people had composed intellectual and moral values by means of these books. This article strives to analyse how Anatolian people who repeatedly read the said texts over centuries through secondary institutions of culture which built itself. In the study descriptive analyze method is adopted.

Keywords: Turkish culture, Turkish religiosity, populer religion, public religion.

[1] Prof. Dr., Karabuk University, Theology Faculty, hurmahmut@gmail.com

مدخل

إنّ الحضارةَ الإسلاميّةَ وفقاً لما يعتقدُه رجلُ الفكرِ سزائي كاراكوج – الكاتب والباحث في الحضارة الإسلامية والفكر التركي- لم تكن عبارةً عن منتج العِرقِ العربيّ وحسب، بل هي نتاجٌ مشترك لأعراقٍ متعددة كالعرب والعجم والترك، وقد مزجت هذه الأعراق روح الإسلام في روحها واستخلصت منها حضارةً مشتركةً[2]، و يرى السيد كاراكوج أنّ "الدول تزول وتعود لكنّ الحضارة لا تزول"[3].

وآراءُ كاراكوج هذه تُشبهُ آراءَ المؤرخ الإنكليزي آرنولد توينبي، إذ يتبنّى آرنولد فكرةً مفادُها أنّ قيام الدول وزوالها لا يهمُّ الحضارة لأنها تتمتع بالديمومة والاستمرار[4].

وفي أثناء تعريف السيد كاراكوج الصفةَ المميّزة للحضارة الإسلامية فإنه يعتبر الإسلام "حضارة الوحي"[5] كما يؤكد على أنّ بنية الحضارة الإسلامية تم تأسيسها وفق القرآن الكريم، ويؤيد مقولته هذه في موضعٍ آخر بقوله "إن الحضارة الإسلامية حضارةُ كتابٍ" و يؤكد على أثر القرآن والسنة وعلومهما في بناء الحضارة، إذاً ما موقع هذا الكتاب في الحضارة عند الأتراك ؟ وما هذه الكتب ؟ وكيف تأثروا بها ؟ وهل تغيّرت الكتب التي تأثروا بها خلال الفترات التاريخية ؟ وإذا كانت قد تغيّرت فما هي هذه التغيرات ؟ وكيف شهدت بنية المجتمع التركي النتائج التي تبعت هذه التغيرات؟.

سنحاول في هذا البحث الموجز الإشارةَ إلى المصادر التي استقت منها ثقافة الأتراك في الأناضول، والتي تعدُّ مكوناً مهماً في التاريخ الإسلامي، كما سنشير إلى نمط الحضارة التي بنتها هذه المصادر، والهدف من هذا البحث العمل على شرح وتوصيف البنية الفكرية والأخلاقية للمجتمع التركي ولسنا بصدد البحث عن نشاطات العلماء الأتراك ومدراسهم، لأننا سنقوم باتباع المنهج الاجتماعي في هذا التحليل.

---

[2] سزائي كاراكوج آفاق ما وراء الطبيعة 84.
[3] المرجع السابق 5.
[4] آرنولد توينبي الوعي التاريخي منشورات البتاش 1987.
[5] سزائي كاراكوج المقالات اليومية منشورات دار ستش و ديريليش 1989 ص 288.

يُعدّ الأتراك شعباً مهاجراً، يعتمد غالباً على تربية الحيوان والصيد في تأمين لقمة العيش، وكانوا يستعملون لغةً بسيطةٍ مستوحاة من الجغرافيا التي يعيشون فيها ومن موارد دخلهم، لكنّ هذا الشعب –ذا الطبيعة الأمّية– لم يجد صعوبةً في قَبول الإسلام الذي جاء به النبيّ الأمي صلى الله عليه وسلم، فلقد تعلمّوا القرآن وأُسسَ الحضارةِ من خلال اللغة الفارسية أولاً ومن ثم العربية، ولذا فقد أغْنَوا لغتهم وثقافتهم بلغاتِ وثقافاتِ هذه الأمم فلم يتكبروا أو يتحسسوا من هذا الأمر، بل على العكس كانوا منفتحين لتلقي الحكمة حيثما وجدت.

وتحوّل الأتراك أولاً إلى حضارة مستقرةٍ في منطقة السنجاب من تركستان الشرقية الدّاخلة حالياً في حدود الصين، ونظراً لما يتمتّع به شعب هذه المنطقة من خصائصَ سواءً في نشاطات الزراعة والإعمارِ أم في مستوى الصفات الأخلاقيةِ بين أفراده فقد استمرّ إطلاق مقولة "مهد الحضارة" على الإيغور إلى يومنا هذا.

واستعمل الأتراك الكتابة في إدارة الدولة اعتباراً من القرن الثامن والتاسع الميلادي، وأسّسوا في القرن العاشر والحادي عشر مدناً شهيرةً مثل سمرقند ، وبخارى ، وطشقند، وقد عُرفت بمدارسها وخاناتها وحماماتها ومساجدها، ولا تزال هذه المدن إلى يومنا هذا ضمنَ حدودِ أوزبكستان تركستان كازاخستان، ورغم كلّ هذا لم تتمكن كل شعوب هذه المناطق من الدخول في الإسلام، لكونهم يعيشون مهاجرين، ينتقلون في بعض شهور السنة مع مواشيهم ويقيمون في المراعي، وبسبب عدم انتقالهم إلى نظام مستقر لم يتمكنوا من بناء المساجد والمدارس والمؤسسات التعليمية ، كما لم يحصلوا على تعليمٍ ديني وكانوا يؤدون عباداتهم منعزلين .

لقد هاجر الأتراك عبر التاريخ من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ومن المناطق الباردة إلى المناطق الحارّة، ولا تزال الهجرة مستمرة إلى يومنا هذا، ففي العهد العباسي انتقلوا إلى العراق وسوريا خدمةً لمركز الخلافة وبرزوا في المراكز العسكريّةِ، وكان لموقفهم العدائي القديم تجاه الصينين وما نتج عنه من تجارب في التحالف وتأسيس الدول وتنظيمها أثرٌ كبيرٌ في هذه البلاد.

الحضارة السلجوقية والعثمانية

نقل السلاجقة في فترة حكمهم الأناضولَ تجاربَهم العسكرية والعلمية التي ذكرناها سابقاً، وقد بنوا في كلّ ولايةٍ من ولاياتهم المساجد الكبيرة والقصور والخانات والحمامات والجسور والزوايا والرباطات، ويعني هذا أنها أُسّست في مدن تعدّ أساس نظام المجتمع مثل: أرض الروم وسيواس وقيصري وكر شهير وقونيا، هذه المؤسسات الخيرية الكبيرة كانت تُبنى في الغالب بناءً على رغبةِ السلاطين والولاة لأهدافٍ عسكرية، فعلى سبيل المثال: الزوايا التي كانت تبنى على جوانب الطرق الرئيسية لم تكن مركزاً للطريقة التي يُشرف عليها شيخ الطريقة وحسب، بل كانت مضافاً لابن السبيل وملجأ للجائع والعطشان ، وعيناً للجيش والاستخبارات، ومكتباً لتعليم الدين، ومكاناً للعبادة، وموئلاً للمحتاجين والمكروبين.

إن التجارب التي نقلها كل من جلال الدين الرومي القادم من آسيا الوسطى و ابن العربي القادم من الأندلس امتزجت لتحكم المؤسسات في الأناضول بخليط أصيلٍ، وبجملة مختزلة يمكن القول بأن التجارب والخبرات الدينية في البيئات المختلفة امتزجت من جديد في الأناضول وظهرت معها حضارةٌ جديدةٌ، ولهذا كان العارفون العثمانيون يقولون: رضعنا من أمّين(يقصدون علوم ابن العربي وجلال الدين الرومي).

وفضلاً عن ذلك وعبر التاريخ العثماني تمّ بناء أماكن خاصةٍ لقراءة كتاب جلال الدين الرومي "المثنوي" وسميت هذه الأماكن " خانات المثنوي" وعُيّنَ مدرسون مختصون بقراءته وتدريسه وخصصت لهم رواتب، ومن جانب آخر تمت كتابة شروح وحواشٍ بأسماء متعددة لأفكار ابن العربي من قبل عددٍ كبير من العلماء، كما قُرئت ودرست من قبل المختصين في أماكن خاصة، حتى تُسدّ الأبوابُ في وجه الفهم الخاطئ والناقص لهذه الأفكار[6].

منهل الحضارة في الأناضول: "غرف القرى"

ترافق مع الهجرة من آسيا الوسطى إلى الأناضول بناءُ القرى والبلدات خارج مراكز المدن، وكان لكلّ بيت في شرق الأناضول غرفةٌ مخصصةٌ للضيوف، وهذه الغرف متصلة بالبيت غير أن لها

[6]للتوسع في هذا الموضوع انظر محمود أرول كيليج روح الأناضول طبعة استنبول 2011.

باباً خاصاً يدخلون منه، وقد تم بناء وتوفير كل ما يحتاجه الضيوف بحيث تكون الغرفة بانتظار ضيوفها، أما في غرب الأناضول فإن غرف الضيوف تكون في مركز المدينة متصلة ببيت الإمام، بحيث يستفيد كلّ أهل القرية من منافع هذه الغرف، ويُستضاف في هذه الغرفة التي تُسمّى "غرفة القرية" كلُّ غريبٍ قادمٍ، كما أنّها تُعدّ مكان اجتماع سكان القرية كل مساء، ومن النشاطات فيها أيضاً قراءة الإمام أو العالم كتاباً أمام الحاضرين وتبادله معهم أطراف الحديث[7].

وكان فصل الشتاء يستمر تسعة أشهر في شرق الأناضول، فكان السكان الذين يعتمدون على الرعي في معيشتهم ويعيشون مع طبقات الثلج الكثيفة غير قادرين على الخروج مع مواشيهم خارج القرى، ولأنهم لا يطيقون الجلوس في بيوتهم دائماً كانوا يتنقلون مساءً ويجتمعون في غرف القرية بشكل دوريٍّ، و مهما كان الهدف من هذه الاجتماعات سواءً للتدفئة أم لسماع النصائح والمناقب والمواعظ، فالجميع صغاراً وكباراً كانوا يشاركون في هذه المجالس، فالصغار يتعلمون الأدب وتتربّى نفوسهم من خلال مشاهداتهم، لقد كانت وظيفة "غرف القرية"شبيهةً بعمل "المدارس الحكومية" اليوم، ففي فترة السلاجقة كانت حكايا حمزة وحروب عليّ رضي الله عنهما وقصص الأبطال، والأساطير البطولية وأمثالها مما يُقرأ في بيوت العامة، وقد حافظ الشعب الأميّ على هذه الحضارة الخاصة من خلال تكرار قراءة هذه الآثار، فقد تعلم الناس من خلال هذه الكتب ضرورة أن يكونوا في التضحية والوفاء كحمزة وفي العلم والشجاعة كعلي وفي البطولة والقوة كـ "بطال المحارب"[8]وهكذا كان يتمُّ تشكيل شخصية الشباب منذ طفولتهم كي تكون مُثلُهم العليا القوةَ والصدقَ ومساعدةَ المحتاجينَ ومقاومةَ الظالمينَ ومحاربتهم.

ومع تطاول عهد الدولة العثمانية تغيّرت معه صفة وماهية الكتب المقروءة، واحتلت الكتب المتعلقة بالكتاب والسنة مكان كتب القصص والأساطير، وقد جاء هذا التحول نتيجةً لاكتساب المجتمع مزية الاستقرار، كما أن الدولة أصبحت قويةً تجاه الصليبيين والمجتمعات الأخرى، وكان المجتمع واثقاً من أمنه واكتسب الثقة بنفسه، في هذه المرحلة ونتيجة التمدن

[7] مصطفى أنور نظرة غلى درو الغرف في الأناضول في التعلم والتعليم الشعبي مجلة جامعة 19 ايار سنة 2005 العدد18-19 صفحة 71 – 92.

[8]مجاهد مشهور حارب البيزنطيين في زمن الدولة الأموية وله بطولاتٌ عجيبة عاش في القرن الثامن الميلادي، تجري أحداث بطولاته في مدينة مالاطية وما حولها في جنوب تركيا وإلى الآن لا يزال الناس في تلك المنطقة يسمون أبناءهم بهذا الاسم تفاؤلاً .

والثقة بالنفس بدأت تنتشر قراءة الكتب ذات الطابع العملي الحياتي منها: الأحكام الفقهية لمزراكلي، أحمدية، محمدية، المثنوي، وتذكرة الأولياء، وفي الفترة اللاحقة ظهر جلياً أثر هذه المصنفات في بناء الحضارة، فكتاب الأحكام الفقهية لمزراكلي –كاتبه مجهول الاسم- يحتوي على اثنتين وثلاثين فريضة من فرائض الإسلام وهو كتاب فقه بسيطٌ، أما كتب الأحمدية والمحمدية فهي كتب تُعرّفُ بتاريخ الإنسانية والصراع بين الحق والباطل والخير والشر منذ عهد آدم عليه السلام، وكان القراء يكتسبون من هذه الكتب فهمَ طبيعة الصراع بين الحق والباطل، والنظرة للكون في ضوء القرآن والسنة، أما كتابا المثنوي وتذكرة الأولياء فهما كتابان يحويان القصص ذات العبر والحكايات والوعظ التي تُبَيّنُ للشخص واجباته تجاه ربه ونبيه وبقية الناس والمخلوقات .

والخلاصة:يمكننا أن نتخيل من خلال محتويات هذه الكتب المجتمع العثماني الذي ظهر، وقد سُئلَ يحيى بن كمال: كيف وصل العثمانيون إلى أبواب فيينا ؟ أجاب: "بأكل البرغل وقراءة كتاب المثنوي"، قال هذا قاصداً أن البرغل يُصنع من القمح وهو يمثل اللقمة الحلال من عرق الجبين، أما كتاب المثنوي فإنه كتابٌ يشرحُ واجباتنا تجاه ربنا ويبيّنُ كيفية التعامل مع مخلوقات الله في الأرض.

وعند الحديث عن العهد العثماني حدث تغيرٌ جزئيٌ في أسلوب البناء وبنية المجتمع، أما أشكال البناء فكانت صغيرة كـ المساجد والخانات والحمامات والزوايا وسبل الماء، وذلك في أكثر المدن عدا بورصة، وأدرنة، واستنبول، فلم يولِ العثمانيون اهتمامهم بالمباني كبيرة الحجم كالسلاجقة، بل كان اهتمامهم منصبّاً على متطلبات البيئة التي استقروا فيها وعلى القيمة الجمالية العالية كما يظهر ذلك في الأبنية العالية والمؤسسات، لقد كان أعظم اكتشافٍ للعثمانيين هو إيجاد نظام القبة وتطبيقه في البناء، كان هذا الكشف نتيجةً لتصورهم للوجود والعالم وثمرةً لسعة فكرهم .

وقد تمّ بناء المدن العثمانية حول المساجد، وإلى جانب المسجد يقع الخان وبيت الضيافة وبيت الطعام (المطعم) ودار الشفاء والمدرسة والزاوية، وكانت كل طرق المدينة تؤدي إلى الكلية الموجودة وسط المدينة وذلك على نمط المسجد الحرام.

والحضارة العثمانية هي حضارة الماء، فقد تمّ فتح طرق الماء إلى المدن والقرى، وبنى الناسُ سبل الماءِ رجاءَ الثواب لأجدادهم وآبائهم، فعلى سبيل المثال وفي هذه الفترة تمّ بناء مئة وثلاثين سبيلاً للماء في المنطقة التي أعيش فيها (صفران بولو)[9]، ومن السلاجقة والعثمانيين تعلّم الصليبيون والمغول ثقافة الطهارة والنظافة التي منشؤها من الشعب المسلم .

والحضارة العثمانية هي "حضارة رعاية الطير" أيضاً فقد تم تصميم أشكال هندسيةٍ مناسبةٍ لتبني الطيور أعشاشها على البيوت والمساجد وواجهات الأبنية، كما تمّ تأسيس أوقافٍ خاصة بعلاج الطيور المكسورة الجناح، كل هذا الاهتمام كان نتيجة اعتبارهم الحيوانات جزءاً من حياتنا وليست منفصلةً،و لهذا السبب يقول الروائي الفرنسي بييرو لوتي: "إن الحضارة العثمانية هي حضارة القطط" لقد تعجّب كثيراً عندما رأى القطط والكلاب في الغرب لا تستطيع التجول في الشوارع أو تتجول وهي مخفية ذيلها تحت قدميها من الخوف، أما في استنبول فكانت القطط والكلاب تتجول بكل حريّةٍ وتتبختر في مشيتها كأنها قائد، وقد وقف هذا الروائي حائراً أمام اهتمام الناس بالقطط وتقديم الطعام والعلاج لها بكل رحمة .

والحضارةُ العثمانيةُ حضارةُ الرحمة فقد كان الحطّابون الذين يقطعون الأشجار للتدفئة في الشتاء يغطون رأس الفأس بقماشٍ عند ذهابهم لقطع الأشجار احتراماً لها لأنهم كانوا يعتبرونها من الأحياء فلم يرغب الحطّابون بإثارة الرّعب عندها ووضعِ أنفسِهم مكان الخالق الذي يأخذُ الأرواحَ، وكان الحطّاب يكشف عن فأسه عندما يصل إلى الشجرة اليابسة التي انقطع ذكرها لله، وعندما قال السلطان محمد الفاتح: "أقطع رأس من يقطع الشجرة الرطبة" لم يقل ذلك خوفا من انعدام الأشجار بل لأنه يرى أن الأشجار مثل بقية الأحياء وليُبَيّنَ ضرورةَ احترامِها بهذا الأمر، فاستنبول كانت مغطاةً بالأشجار من كلّ جوانبها في ذلك الوقت.

والحضارة العثمانية حضارة الأمل، فلم يستول العثمانيون على استنبول كما يدّعي بعض المستشرقين والصحفيين، بل فتحوها،لأن الاستيلاء يعني الاستغلال ونهب ثروات البلد المحكوم ونقلها إلى بلد الحاكم، أما الفتح فهو إغاثة المجتمع الواقع في مأزقٍ ومساعدته وإزالة غمته،

[9] مدينة تقع شمال تركيا تابعة لمحافظة كارابوك تشتهر ببيوتها القديمة ، بنيت في العهد العثماني وهي مسجلة في اليونسكو في قائمة التراث العالمي.

وتُحترم فيه حقوق المجتمع ويكون الفتح علاجاً لأمراض الناس ومعضلاتهم، فعلى سبيل المثال قام الصليبيون ما بين عام 1204-1260 بالقدوم إلى استنبول والاستيلاء عليها بحجة إنقاذ القدس، وقاموا بنقل كل خيرات استنبول إلى الغرب لمدة ستين سنةً تقريباً، هذه الخيرات والثروات توجد اليوم في روما، ولهذا فضّل الأرثوذكس اللجوء إلى عدالة العثمانيين لأنهم امتعضوا وسئموا من نهب خيراتهم وثرواتهم فقالوا " نفضّل رؤية عمامة العثماني على قبعة الكاردينال".

عندما فتح السلطان محمد الفاتح البوسنة قال:

1كل من يتعرض لليهود والمسيحين بأذى.

.2أو يتسبب بضرر لما في الطبيعة

3أو يؤذي الحيوانات التي لا حول لها ولا قوة فإنه سيجدني ضدّه (يقصد القوة العثمانية).

وقال تيونبي العالمُ بتركيبةِ الدولةِ العثمانيةِ: " إن العثمانيين هم مستقبل الإنسانية"، إذ أشار إلى أن البشرية ستعيش في سعادةٍ كبيرةٍ إذا ما طُبق منهج إدارة العثمانيين في مختلف أصقاع الأرض.

إن تجربة الحضارة العثمانية الإسلامية نجحت لمدة خمسمائة سنة في جعل البلقان والقفقاس والشرق الأوسط بلاداً للسلم والأمن ومركزاَ للحضارة الحقيقية ومكاناً تُؤدّى فيه الحقوق ولا يُظلم فيه أحدٌ، ويمكن القول بأنه لم يعرف التاريخُ دولة أو قوماً أسّسوا لأنفسهم حضارةً جمعت بين إفريقيا وأوربا وآسيا وحَوَت فيها أدياناً وأعراقاً وقومياتٍ متعددةغيرالعثمانيين.

لم تنتج الحضارة الغربية ثقافة العيش المشترك بين أديان مختلفة وثقافات متباينةٍ وحضارات متعددةٍ، بل على العكس من ذلك فإنها في القرون الخمسة الأخيرة قد أفسدت جذور كل الحضارات أو زرعت بذور الفساد، ولهذا السبب فإن الحضارة العثمانية هي مركب الإنسانية الوحيد الذي يمكن أن يوصلها إلى بر الأمان.

جهود تغيير الحضارة الأناضولية

بدأ العثمانيون التقهقر اعتباراً من القرن السابع عشر، وترافقت معه نقاشاتٌ حول التراجع والتخلف، وكان الناس فيما بينهم يطرحون الأسئلة التالية:

لماذا تخلفنا ؟ لماذا هزمنا ؟ لماذا نخسر أرضنا ؟

وقد أجاب العلماء والمثقفون بثلاثة أنماطٍ من الأجوبة:

1-لأننا لم نفهم القرآن بشكل صحيح ولهذا يجب علينا أن لا نقرأ القرآن قراءة ظاهرةً وحسب بل يجب النظر إلى ما وراء الكلمات من القواعد العلمية لحياتنا وعبر التاريخ وقد ظهرت بسبب هذا القراءة التأويلية والتاريخية والتفسير العملي.

2-بسبب انقسام المسلمين إلى مذاهب متعددة ، ولذا يجب إلغاء المذهبية والتعصب لها.

3- بسبب غوصنا في البدع والخرافات، وعليه يجب إزالة كلّ ما علق بالدين بعد النبي صلى الله عليه وسلّم مما ليس منه .

ومن الملاحظ أنه تم البحث عن جذور المشكلة في الدين والمتدينين، في حين لم يكن سبب التخلف في الدين والمتدينين بل كان في عدم أخذ رجال الدولة التدابيرَ اللازمة لنهضة الدولة، وعدم القراءة الجيدة للعصر.

وعندما انهارت الدولة العثمانية جُعل طريقُ الخلاصِ في الوطنية والقومية والوضعية والعقلانية كما هو الحالُ في بقيةِ المجتمعاتِ الأخرى المتأثرة بهذه التيارات الفكرية.

وقد تبنّى أتاتورك مؤسس الجمهورية التركية هذه الفكرة وجعل هدفه رفع المجتمع الجديد إلى مراتب الدول المتحضرة:

وقصده من ذلك ما يلي: الهدف أن يصبح المجتمع التركي الحديث مثل الدول الغربية ليس في العلم والتكنولوجيا فحسب بل في الثقافة والحضارة، وقد لاقت هذه الفكرة اعتراضاً من أدباء تلك الحقبة كالشاعر الوطني محمد عاكف الذي شبه الحضارة الغربية بوحش ذي سنٍّ واحدة.

وذلك لأنّه رأى الدّول التي تدّعي الحضارة والمدنية كيف استولت على البلاد الإسلامية ونهبت الموارد الظاهرة والباطنة، وقسّمت المجتمعاتِ إلى شعوب متناحرة وأوقعت بينهم وجعلتهم يتحاربون ويقتل بعضهم بعضاً، لقد عاش الحرب العالمية الأولى بكل مراراتها، ورأى أن هذه الحروب قامت لمصلحة الدول التي تدعي التحضر، وينتهي محمد عاكف إلى القول بأنه يمكن فقط أخذ العلم والتكنولوجيا من المجتمعات المتقدمة أما الأخلاق والثقافة ونمط العيش فلا يعوّل عليهم فيها أبداَ.

ومن أجل تطوير الشعب التركي أغلق أتاتورك الزوايا والأضرحة بحجة أنها سبب تخلف المجتمع، ومع قرار المنع الذي استمر زهاء 27سنة خُربت الممتلكاتُ القيمة الموجودة في مزارات الخلفاء والسلاطين والشهداء والأولياء وكذلك الآثار القيمة الموجودة في الزوايا التي أصبحت ممنوعة، ورمي السجاد المذهب ولوحات الخط الجدارية و ورق الجدران المذهب والزخارف في القمامة، ومسحت واقتلعت الكتب المكتوبة باللغة العربية والطُغْرَاءَات – أختام السلاطين – .

وغُيرت الحروف العربية التي استخدمت قروناً، مع هذا التغير تحول الشعب في ليلة واحدة إلى شعب أميٍّ لا يعرف القراءة والكتابة، لعدم معرفته الحروف الجديدة، وأغلقت المكتبات لأن قراءة وكتابة ونقل كتب الأجداد أصبحت ممنوعة، وأغلقت جميع المؤسسات الخيرية التي تعود إلى العهدين السلجوقي والعثماني، بعضها تم بيعه وبعضها الآخر هدم، ويبدو هذا الأمر كما لو أنه عملية مسح لذاكرة الشعب التركي التي تعود للفترة الإسلامية. وحذفت الكلمات العربية والفارسية من المعاجم بدعوى تبسيط اللغة التركية، فاللغة التي كانت تحتوي خمسة وسبعين ألف كلمة تم اقتصار كلماتها على أربعة ألاف كلمة.

في السنوات الأولى من العهد الجمهوري قامت الدولة بطباعة كتاب تفسير وآخر للحديث لكي تُقدّم الدين للناس بالشكل الذي تريده بحجة تطوير المجتمع، ولكن الشعب مع مرور الزمن ابتعد عن جذوره وحضارته، ولأن الصلة بين الشعب وثقافتة وحضارته قد قُطعت، لم يؤمّن إغلاق الزوايا والأضرحة تديناً أفضل، وفي النتيجة لم يُفهم الدين بشكلٍ أفضل ولم تنج الدولة ولم تصل إلى مراتب الدول المتحضرة.

أُغلقت المدارس التي تعود إلى الفترة العثمانية، وافتتحت الجامعات، وأُغلقت الزوايا وافتتحت البيوت الشعبية، و قدمت معلومات عن الزراعة وتربية الحيوان والتكنولوجيا، إلى جانب العروض المسرحية في البيوت الشعبية، وتمت الإساءة للدين والرموز المرتبطة به في الأفلام والسينما والمسرح، لقد قُدِّم الأئمة والمؤذنون وعلماء الدين كشواذ ومنافقين وكذابين واحتقروا من أجل إضعاف تأثيرهم في المجتمع، كما أرادت الدولة تغيير البنية الموسيقية والفنية والجمالية للمجتمع تغييراً جذرياً، فأسست الفرق الموسيقية في مجال الموسيقا الغربية، وعمل على تحبيب الشعب بالأعمال الموسيقة الغربية عن طريق عرض الحفلات في الأماكن العامة، وحتى الإعلان عن الوفاة أصبح يترافق مع الموسيقا الكنسية بدلاً من الصلاة على النبي عليه السلام، لكن الشعب التركي لم يقبل أبداً حركة التمدن الإجبارية القمعية.

ولعل أجمل مثال على رفض وعدم قبول هذا الفرض الثقافي على الشعب التركي نجده في جواب أهل مدينة بايبورت في الجواب الواقعة في شرق الأناضول، حيث قَدَّمت فرقة موسيقية تابعة لرئاسة الجمهورية في يوم من أيام السنوات الأولى من العهد الجمهوري حفلة في ساحة بايبورت، فاجتمع الناس في الساحة للاستماع لها وقد أحاط بهم الجنود حتى لا يتفرقوا، وعندما انتهت الحفلة وبدأت الفرقة الموسيقية مغادرة المدينة بدأ الناس بالهتاف "لم تر بايبورت ظلماً مثل هذا الظلم من فترة طويلة" وهذا الكلام للتعبير عن أن الفرقة لم تخاطب ذوقهم الجمالي وأنهم لم يستمتعوا بالحفلة ولم يفهموا منها شيئاً.

وفي يومنا هذا ما تزال الشركات الكبرى والبنوك تنظم مسابقات الرقص والمسرح والموسيقا الغربية وتنظم الفعاليات الفنية وتدعو الشباب التركي إلى هذه العناصر التي تمثل الثقافة والحضارة الغربية، ولكن هذه الفعاليات التي نظمت في العهد الجمهوري نجحت في الاستحواذ على بعض الجمهور المتأثرٍ من المستمعين والمتابعين، وهذا يعبر عن جمهور غريب عن ماضيه عدو لأجداده.

الردود والإجابات على جهود تغييرالحضارة

مع بداية العهد الجمهوري حُظرَ الأذان باللغة العربية، حدث ذلك بين عامي 1938 و1950 فقد فُرِضَ رفع الأذان باللغة التركية، كما حُظرَ السفر لأداء فريضة الحجُّ لمدة ثماني

عشرة سنة، كما حدثت تغييرات جذرية في طريقة اللباس إذ فُرِضَ اللباس الغربي وأُجبر الناسُ على لبس القبّعة، وأُعدِمَ كلُّ من رفض ارتداء القبّعةِ، ومُنع التعليم الديني، كما تمّ سحل طالبي العلم الديني إلى السجون بتهمة الرجعية والتخلف، وتم تطبيقُ مبادئ الدولة العلمانية بأقسى أشكالها وصورها، واعتبر الكلام حول العلمانية وانتقادها من الجرائم وعُدّ المتكلمون أعداءً للدولة .

ورغم كل هذه الجهود لمحو الحضارة لم يشنّ الشعب المسلم حرباً على الدولة ولم يبدأ مقاتلتها، وأدرك أن هذه المرحلة مؤقتةً وعارضة، وبدأ الناس جهوداً ليّنةً ذات أثرٍ يمكن تسميتها (التغيير النّاعم)، فعلى سبيل المثال كان بعض العلماء يُدَرّسون الأطفال القرآن في الجبال والغابات، وحدث أن بعض المدرسين سافروا بالقطار مع طلابهم متظاهرين أنهم ركّاب بهدف تعليم الدين والقرآن، أغلقت الزوايا، ورغم إغلاق الزوايا فإن المنتسبين للطرق استمروا بنشاطاتهم الدينية بشكل منفرد وقاموا بإعطاء دروس دينيةٍ في المساجد عند أوقات الصلاة وفي الأسواق وأماكن العمل، كانت أولويات هذه الدروس تعليم القرآن وأداء الفرائض والابتعاد عن المحرمات، مما أدّى إلى استمرار احترام الفرائض الدينية بين الناس على أيدي المنتسبين للطرق، فإن صادفوا شخصاً متديناً أو طالب علم علموا أنه منتسبٌ إلى طريقةٍ.

الانقلابات العسكرية كانت تحدث كل عشر سنوات، وعند الانتخابات البرلمانية كان الناس يختارون من يعتقدون أنه يمثلهم ولم ينتخبوا ممثلي الانقلابات، وقاموا بالردّ على جهود محو الحضارة التي قام بها المثقفون والمنوّرون – كما يُسمّون- من خلال تربية جيلٍ من الساسة والمهندسين والأطباء ومدرسي الجامعات الذين تولوا الوقوف في وجه مدّعي الحضارة والتنوير.

وبعد أن حدثت الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979تأثر بعض الشباب المسلم بها، وقاموا بالخروج عن أعراف وإرث المجتمع التركي كما نادوا بإظهار رفضهم لحكامهم بأسلوبٍ يشابه ما حدث في إيران، وتركوا حضور صلاة الجمعة مدّعين أنّ البلد دار حرب، كما تركوا زيارة قبور الأولياء والصالحين ووصفوا الطرق بالشرك ورفضوا المشاركة في الأحزاب وإدارة الجمعيات بحجة أن هذا سيؤدي إلى تشريع نظام الدولة، غير أن هؤلاء غفلوا عن أمورٍ مهمةٍ: فمثلاً إن لم يذهب شعب الأناضول المسلم إلى الجمعة فأين سيتعلمون أمور دينهم وعباداتهم ؟أما عن زيارة

القبور والأولياء والشهداء فلم يكن الناس يزورونها تقديساً لها وعبادةً، وإنما للتعرف على الصالحين من أهل القبور واقتفاء آثارهم في الخير، كما أنّ بعض الناس كانوا يزورون القبور نتيجة الصلة أو القرابة أوإظهاراً للحب وتعبيراً عن وفائهم وإخلاصهم لهم، إن ترك حضور الجمعة وزيارة القبور يؤدي إلى منع تعلم أمور الدين، كما يُعلّم الناس إنكارَ المعروف، وبما أن هذا البلد – الأناضول– له حدود مع الغرب فإن المساجد والمدارس الدينية والقبور تُعدُّ وثيقةً وعلامةً على تبعية الأرض للمسلمين كما كانت وثيقةً مهمةً تجاهَ أيّ دعاوى لسلبها من أهلها.

وبعد أن مضى على الثورة الإسلامية الإيرانية خمسة عشر عاماً تبين للناس الكراهية والحقد الذي بثته إيران بين المسلمين لأنها استثمرت قضية كربلاء في مشروعها الطائفي، لقد تمّ إدراك مشروع إيران الطائفي الذي بدل أن يكون حَجَرَاً في بناء الإسلام كان دائما لتشويهه وفكّ عراه، لقد جعلت إيران الإسلام مشروعاً قومياً وطنياً فبدل أن تعمل من أجل مصالح جميع المسلمين سعت من أجل بناء مجدها الطائفي، فلا يمكن لمكان مثل هذا أن يخرج منه مرشديرشد في الأناضول لقد انتهت واستهلكت شهرة إيران في الأناضول، لأن شعب الأناضول رفض هذا المشروع الذي يتعارض مع تاريخه وحضارته.

حضارةُ الأناضول، حاضِرُها ومُستقبلها:

إنّ الجاهلين أو الذين يشككون في حضارة الأناضول التركية الإسلامية، ركعوا أمام العلوم والحضارة الغربية، وظنوا بأنهم سيتقدمون وسيتطورون إذا تَبعوا تلك الحضارة الغربية، وإذا وضعوا مسافةً بينهم وبين الدين مثل تلك الحضارة، أو إذا قاموا بتفريغ الدين من المحيط العام، وبدؤوا يُشككون في قيمة ذاتهم، ومن أجل أن لا يفقدوا الامتيازات والممتلكات والمواقف المستقلة التي حصلوا عليها، حاولوا الضغط على الطبقة المتدينة وعلى قيمها.

وبذلك أصبحت تركيا بلدًا محاصرًا من الداخل والخارج معًا، وقد حاول كل من الشهيد عدنان مندرَس و أوزال و أربكان كسرَ هذا الحصار، ولكن الإرادة المؤسِّسة وحُرّاسَها من الهيكل العسكري قامت بإخماد هذه الحركات ومعاقبة رُوّادِها.

ونتيجة لهذه الضغوط جاءت إلى السلطة حكومة جديدة، وإن أعضاء هذه الحكومة هم من محبي الإمبراطورية العثمانية ومن الذين لم يمت فيهم وعي الأمة، وعلى رأس هذه الحكومة السيد رجب طيب أردوغان الذي خطا خطواتٍ مهمةً مُستَفيدًا من الميراث الذي تَركهُ المؤسسون الذين سبقوه الذين كانوا قد خسروا السلطة عدة مرات بالصراع، ولكن في هذه المرة أخذوا منحىً آخر فلم يصطدموا مع العسكر بل بدأوا بحل مشاكل الشعب الأساسية وأهمها الاقتصاد. وخلال السنوات العشر الأولى تقريبًا فُكَّ الحِصار عن تركيا، وعادت إلى الاستفادة من مواردها الاقتصادية والتكنولوجية والاستراتيجية، واتجهت نحو أفكارها ومواردها المحلية من أجل حل مشاكلها، وقد نوقِشت وكُتبت وكُشفت الأَضرار التي سَبَّبتها التشكيلات والمجموعات العسكرية والاقتصادية والسياسية خلال تاريخ الجمهورية، وكان نصيب الليبراليين كبيرًا في هذه العملية. حيث أنهم كانوا في وضعٍ خانقٍ بسبب الأنظمة القمعية والضغط الاقتصادي.

وإن الحكومة الجديدة كانت تقوم في كل فترةٍ من فترات حكمها ببناء الجسور ومحطات الطاقة وقطارات الأنفاق والمطارات وغيرها من البنى التحتية التي أصبحت أمام مرأى الشعب، ولكي تتخلص من تبعِيَّتِها للخارج فإنها قامت بتشجيع المشاعر الوطنية من خلال إنشاء طائرات محلية ومركبات محلية وسفن محلية ودبابات محلية مما يؤدي إلى تحديث الجيش وتقويته من خلال وضع أهداف تكنولوجية رفيعة المستوى، وتحديد الجداول الزمنية لتحقيق هذه الأهداف، وبذلك زادت ثقة الشعب بنفسه، كما تأسست صحفٌ و قامت مجموعة من الصحفيين بشرح أهداف الحكومة.

كما قامت الحكومة بتوسيع نشاطاتها في الخارج وهذه النشاطات تشمل منظمات الإغاثة وإصلاح الأعمال التي لها جذور تاريخية ودينية وثقافية، ومن خلال ذلك فإن الشعب التركي ومع تزايد غِناهُ وإنشائه للعديد من المنظمات، بدأ القيام بمساعدات غذائية وطبية ومالية وفتح مكاتب تمثيلية شملت العديد من بلدان العالم، من أفريقيا إلى إندونيسيا ومن دول البلقان إلى آسيا الوسطى، إلى درجة أن كل جماعة دينية قامت بإنشاء مؤسسة إغاثية، بعضها قام بحفر آبار المياه في أفريقيا, وبعضها قام بإرسال أطبائها لإجراء عمليات طبية خاصة بأمراض العين، وبعضها الآخر قام بإرسال سفن مساعدات إلى فلسطين، وبعضها قام بإرسال الأضاحي إلى

فقراء إندونيسيا عبر أستراليا، ولعل أهم ما قام به الشعب التركي المسلم في الأناضول في السنوات العشر الأخيرة، هو حملة المساعدات التي قام بها من أجل مساعدة إخوانه المنكوبين في سوريا وفلسطين، وإن هذه المحاولات الناتجة عن الحركات الدينية والمدنية، من المرجح أن تكون مقدمة للفتح الحديث، ومن أجل المرحلة الثانية لنهوض الحضارة التركية الإسلامية في الأناضول، يجب عليها تغيير النظام الثقافي، ووسائل الإعلام، ونظام التعليم المرتبط بالاستعمار.

وبفضل متابعة الحكومة, فقد تأسست 1600 ثانوية للأئمة والخطباء، أي زاد عددها من 400 إلى 2000 ثانوية, وتأسست 70 كلية للإلهيات، أي زاد عددها من 23 إلى 93 كلية، وكل هذا خلال 12 سنة .

ومن جهة أخرى, فإن الشعب التركي في الأناضول خلال 12 سنة، أصبح ميّالًا إلى الأمور الدنيوية بنسبة كبيرة، بسبب زيادة الغنى وقلة نسبة الضغوطات التي كانت موجودة عليه، والكل أصبح منقادًا لأهوائه للحصول على أهداف مجازية (وهمية)، بدل أن يفكّر بما هو موجود حقيقةً، ولهذا السبب, فإن النقاش مازال مستمرًا حول ما إذا كان الحسّ والشعور الديني تزايد عند الناس أم تراجع .

النتيجة:

يقول يوسف قبلان حول أفكار الجيل الجديد: هناك ثلاث عقبات أمام مسألة حضارتنا، وهذه العقبات في الأصل تشير إلى أخطاء اجتماعية ونفسية عند المسلمين، وهي:

1-نشوء حالة قائمة على أساس الدفاع عن أنفسنا ضد الغرب في أواخر العهد العثماني،وأساس ذلك هو ترسخ فكرة "نحن مُحِقُّون, ونحن الأعلَون". لكن لم يُسأل، أين وكيف ومتى كان هذا التفوق ؟ إنما تم الاحتفاظ على التفاخر والدفاع بطريقة جافة.

ومع تأسيس الجمهورية الجديدة، فإن حالة الدفاع تحوّلت إلى حالة الشعور بالهزيمة. وأصبحنا نفكر بأن الدفاع المطلق لم يعد كافيًا أمام الغرب وبأننا لن نستطيع أن نقف في وجهه، وأننا يمكننا أن نشكّل أنفسنا من جديد انطلاقًا من قِيَمنا.

ومع قيام الجمهورية أيضاً، أصبحت حالة الشعور بالهزيمة تتحول إلى حالة الشعور بالتصحيح. وأننا إذا لم نستطع أن نقف في وجه الغرب، كان علينا أن نكون مثله.

إذا ما انتبهنا لأمرٍ فإننا نلاحظُ أن أساس المشكلة هي عدم معرفتنا مكانتنا وموقعنا في هذا العالم، ولتحديد موقعنا تم تنظيم هذه الندوة التي تُعدّ جزءاً من جهود التدقيق والبحث وإني أشكر المنظمين والقائمين على هذه الندوة.

ولإدراك ذلك لا يجب أن يكون الشخص مفكراً و فيلسوفاً، يكفي للتدليل على ذلك بشكل قطعيٍّ ما قاله رجل في اليمن في السبعينات من عمره عندما كنت أتجول في سوق صنعاء إذ اقترب مني وقال:" سقطت إستنبول فسقط معها العالم الإسلامي ، ومن أجل نهضة المسلمين ثانية لا بدّ من نهضة استنبول".

أختم محاضرتي بهذه الحكم والأقوال لمفكرين عالميين:

"إن لم يكن لديكم قول تقولونه للعالم فإنه لا معنى لحياتكم في هذا الدنيا" يوسف قبلان.

Bibliography

Karakoç, Sezai (1998). *Diriliş Neslinin Amentüsü*. İstanbul: Diriliş Yayınları.

Karakoç, Sezai (1995). *Fizikötesi Açısından Ufuklar ve Daha Ötesi*. İstanbul: Diriliş Yayınları.

Karakoç, Sezai (1996). *Günlük Yazılar II- Sütun*. İstanbul: Diriliş Yayınları.

Toynbee, Arnold (1978). *Tarih Bilinci (A Study of History)*, İstanbul: Betaş Yayınları.

Kılıç, Mahmut Erol (2011). *Anadolu'nun Ruhu*, İstanbul: Sufi Kitap.

Ünver, Mustafa (2005). Müslüman-Türk Anadolu İnsanının Eğitim ve Öğretiminde Köy Odalarının Rolüne Folklorik Bir Bakış, *Ondokuz Mayıs Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi*, sayı: 18-19, s. 71-92